عيّنة من الرواية

(للتصفح والاطّلاع)

بسم الله الرحمن الرحيم

شيرلوك هولمز

وَادي الخَوْف

تأليف: آرثر كونان دويل
ترجمة: سالي أحمد حمدي
تحرير: رمزي رامز حسّون

الأجيال للترجمة والنشر
AJYAL Publishers

هذه الترجمة تضم النصّ الكامل لرواية شيرلوك هولمز
المنشورة أول مرة عام ١٩١٤ بعنوان

The Valley of Fear

حقوق الطبع محفوظة للناشر:
الأجيال للترجمة والنشر والتوزيع

يُمنَع نقل أو تخزين أو إعادة إنتاج أي جزء من هذا
الكتاب بأي شكل أو بأية وسيلة: تصويرية أو تسجيلية أو
إلكترونية أو غير ذلك إلا بإذن خطي مسبَق من الناشر

Arabic edition published by AJYAL *Publishers*
e-mail: books@al-ajyal.com

الطبعة الثانية
٢٠٢٠

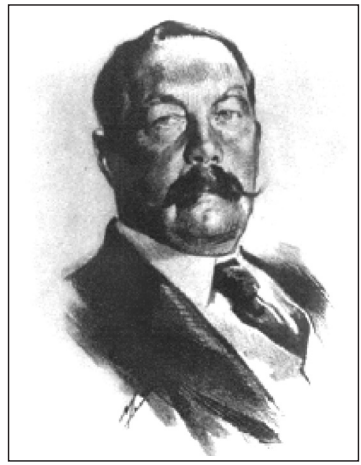

آرثر كونان دويل

وُلد آرثر كونان دويل لأسرة متوسطة الحال في إدنبرة في سكتلندا في الثاني والعشرين من أيار (مايو) عام ١٨٥٩، والتحق بكلية الطب فيها وعمره سبعة عشر عاماً. وكان من مدرّسيه في الكلية الجرّاحُ الشهير الدكتور جوزيف بِلْ، وهو الذي أوحى إليه بشخصية شيرلوك هولمز التي ابتكرها بعد ذلك.

في عام ١٨٨٢ حصل دويل على شهادة الطب من جامعة إدنبرة، وكان يحلم بأن يصبح جرّاحاً وخبيراً في التشخيص مثل الدكتور بل، ولكن قلة المال اضطَرَّته إلى العمل طبيباً على سفينة لصيد الحيتان.

بعد ذلك مارس مهنته في منزل صغير استأجره في بعض ضواحي بورتْسماوث، ولكن عدد المرضى كان قليلاً فاتجه

إلى الكتابة أملاً في الحصول على بعض الدخل الإضافي. وقد كتب بعضاً من قصص المغامرات لمجلّات الفتيان، ولكن أجره عنها كان ضئيلاً، وفشلت روايته الأولى في العثور على ناشر.

وفي غمرة إحساسه باليأس فكّر في أساليب الدكتور بل في التشخيص، وقرر أن يستخدمها في قصة يكون بطلها واحداً من رجال التحري. وهكذا وُلد شيرلوك هولمز في رواية «دراسة في اللون القِرْمِزي» التي نشرها دويل سنة ١٨٨٧.

لقد ابتكر دويل شخصية تفيض بالحياة، حتى إن الجماهير رفضت أن تصدق أنها شخصية خيالية! وكان المؤلف يتلقى بانتظام خطابات موجَّهة إلى هولمز تطلب مساعدته في حل قضايا حقيقية، وبعض هذه القضايا أدى إلى كشف قدرة دويل نفسه.

واحدة من تلك الحوادث كانت عن رجل سحب كل أمواله من البنك وحجز غرفة في أحد فنادق لندن، ثم حضر حفلاً عاد بعده إلى فندقه حيث بدَّل ملابسه ثم اختفى. وعجز رجال الشرطة عن اكتشاف مكانه، وخشيت أسرته أن يكون قد أصيب بسوء، لكن دويل حلَّ المشكلة سريعاً إذ قال: "سوف تجدون رجلكم في غلاسكو أو إدنبرة، وقد ذهب هناك بمحض إرادته. إن سحب كل أمواله من البنك يشير إلى الهروب المتعمَّد، والحفل الذي كان فيه ينتهي في الساعة الحادية عشرة، ولمّا كان قد أبدل ملابسه بعد عودته فلا بدّ أنه كان ينوي القيام برحلة، والقطارات السريعة المتجهة إلى

سكتلندا تغادر محطة كِنْغز كروس عند منتصف الليل". وقد عُثر على الرجل في إدنبرة فعلاً!

كان آرثر كونان دويل رياضياً متعدد المواهب، فقد مارس الملاكمة وكرة القدم والبولينغ والكريكت، وكان خطيباً مفوَّهاً ومحاضراً ناجحاً ومحاوراً بارعاً، وقد ذاعت آراؤه وأفكاره المتنوعة في الطب والعلم والأدب والسياسة والاجتماع.

عام ١٩٠٠ تطوّع الدكتور آرثر كونان دويل في حرب البُويِر (التي دارت في جنوب إفريقيا) وصار كبيراً للجرّاحين في واحد من المستشفيات الميدانية، وفي نهاية الحرب مُنح وسام الفروسية ولَقَبها «سيرْ» تقديراً لخدماته. وقد أصدر بعد عودته إلى إنكلترا كتاباً مهماً عن هذه الحرب.

توفي السير آرثر كونان دويل في السابع من تموز (يوليو) عام ١٩٣٠ بعد أن بلغ الحادية والسبعين، بعد ثلاث سنوات من كتابة آخر قصصه عن شيرلوك هولمز وبعد مرور أكثر من أربعين عاماً على أول ظهور علني لهذه الشخصية الخارقة.

شيرلوك هولمز وعالَمه

ربما كان شيرلوك هولمز أشهرَ الشخصيات الخيالية في التاريخ، بل إنه يكاد يفوق في شهرته كثيراً من مشاهير العالم الحقيقيين. وقد بلغ من شهرة هذه الشخصية أنها فاقت شهرةَ مبتكرها، آرثر كونان دويل.

استوحى دويل شخصية هولمز وصفاته من الدكتور جوزيف بِلْ الذي درّسه في كلية الطب. كان الدكتور بِلْ يتمتع بموهبة عظيمة في الملاحظة وأسلوب التفكير المنطقي، وكان يثير اهتمام تلاميذه بقدراته الاستنتاجية الفذة، فهو لم يكن ماهراً فقط في التعرف على علل المرضى، بل وفي معرفة شخصياتهم ومِهَنهم وتفصيلات خفية عنهم أيضاً. كان يقول لأحد المرضى مثلاً: "أنت ضابط سُرِّح من الجيش حديثاً، وقد عدتَ لتوّك من بربادوس، وأنت تعاني من داء الفيل".

وبعد أن تسيطر الدهشة على المريض والطلبة على السواء يشرح الدكتور بل الأمر قائلاً إن الرجل يبدو جندياً من

هيئته، وعدم خلع قبعته عند دخوله الغرفة يدل على أنه ترك الخدمة حديثاً، وهو يملك مظاهر السلطة كتلك التي توجد لدى الضباط، وتدل بشرته التي لوّحتها الشمس والمرض الذي يشكو منه على أنه جاء من منطقة استوائية، وقد جاء من بربادوس لأن هذا المرض بالذات منتشر هناك!

«وُلد» شيرلوك هولمز -في عالَمه الخيالي- سنة ١٨٥٤ وحصل على شهادة جامعية لم يحدّدها دويل، ثم احترف مهنة «محقق خاص» منذ نحو سنة ١٨٧٨، وكان يقيم في شارع بيكر في العاصمة البريطانية لندن، ورقم البيت الذي يقيم فيه هو «٢٢١ب». وقد لا نبالغ إذا قلنا إن هذا العنوان (شارع بيكر، ٢٢١ب) هو أشهر عنوان في العصر الحديث! وقد برع هولمز في كشف الجرائم وحل الألغاز الغامضة بفضل دقة ملاحظته

وقدرته العظيمة على الاستنتاج والتحليل المنطقي، بالإضافة إلى غزارة معلوماته واطّلاعه الواسع على العلوم المختلفة.

أما الدكتور واطسون، صديق هولمز ومساعده الذي يرافقه في قصصه كلها، فلا يكاد يقل شهرة عن هولمز نفسه، وهو رَاوِيةُ القصص الذي يقصّها علينا (كما فعل بعد ذلك هيستنغز في كثير من مغامرات بوارو، المحقق الشهير الذي ابتكرته أغاثا كريستي). وُلد نحو سنة ١٨٥٢ وحصل على شهادته الجامعية في الطب سنة ١٨٧٨، ثم انضم إلى الجيش وشارك في الحملة الأفغانية، ثم عاد إلى بلده وتقاعد من الجيش بعدما أصيب في إحدى المعارك، وعندها تعرف إلى شيرلوك هولمز في مختبر الكيمياء بمستشفى ستامفورد أوائل سنة ١٨٨١، ولم يفترق الصديقان بعد ذلك قط.

في قصة «المشكلة الأخيرة» التي نُشرت في نهاية عام ١٨٩٣ «قَتل» دويل بطلَه شيرلوك هولمز، لكنه واجهَ احتجاجاً عارماً من جماهير القراء فقرر إعادة إحياء هذه الشخصية الخيالية من جديد، فعاد هولمز إلى الظهور مرة أخرى في أواخر عام ١٩٠٣ ليستأنف حل القضايا الغامضة.

قصص شيرلوك هولمز

أول قصة نشرها دويل كانت في عام ١٨٧٩، وهي قصة قصيرة عنوانها «إفادة السيد جِفْسون»، أما أول رواية نشرها من بطولة شيرلوك هولمز فكانت «دراسة في اللون القِرْمِزي»، وقد صدرت في بريطانيا عام ١٨٨٧ فلم يَكَد يُحِسّ بها أحد، لكنها حققت نجاحاً معتدلاً في الولايات المتحدة. وبعدها نشر رواية طويلة ثانية من بطولة شيرلوك هولمز، هي رواية «علامة الأربعة» التي نُشرت عام ١٨٩٠ فوطّدت شخصيةَ هولمز في بريطانيا وأمريكا على السواء.

في السنة التالية بدأ نشر مجموعة «مغامرات شيرلوك هولمز» في حلقات شهرية في مجلة «ستراند»، بدءاً بقصة «فضيحة في بوهيميا» التي ظهرت في عدد تموز (يوليو) ١٨٩١، فقوبلت هذه القصص بنجاح كبير غير مسبوق في تاريخ الصحافة البريطانية، ودخلت هذه الشخصية الخيالية التاريخَ من بابه الواسع، حيث صارت حديثَ المجتمع وشُغلَ الناس في أنحاء البلاد.

وقد بلغ عدد قصص هذه السلسلة اثنتَي عشرة، نُشر

آخرها في عدد حزيران (يونيو) من عام ١٨٩٢. ثم ظهرت سلسلة «مذكرات شيرلوك هولمز» التي نُشرت في اثنتَي عشرة حلقة أيضاً صدر أولها في كانون الأول (ديسمبر) ١٨٩٢، ويبدو أن دويل بدأ يملّ عندئذ من كتابة قصص شيرلوك هولمز، ولذلك «قتله» في آخر قصة من هذه المجموعة في معركة مع البروفسور موريارتي الشرّير عند شلالات رايشِنْباخ في سويسرا! وقد نُشرت هذه القصة، وعنوانها «المشكلة الأخيرة»، في كانون الأول (ديسمبر) عام ١٨٩٣.

وثار جمهور دويل غضباً وانهالت عليه ألوف الخطابات تستنكر عمله وخسرت المجلة عشرين ألف اشتراك، ولكن دويل تمسّك بموقفه، فقد شعر بأن شيرلوك هولمز يَحول بينه وبين أعمال أكثر أهمية. ثم وافق أخيراً بسبب الإلحاح الذي لم ينقطع على إعادة إحياء شيرلوك هولمز، فأعاده إلى العمل في قصة «مغامرة المنزل الفارغ» التي نُشرت في مجلة «ستراند» في تشرين الأول (أكتوبر) عام ١٩٠٣.

وعاد شيرلوك هولمز إلى الأضواء من جديد، فقد تبيّن أنه لم يُقتَل على الإطلاق، وفي تلك القصة (المنزل الفارغ) شرح دويل كيف نجا هولمز من الموت بأعجوبة، ثم شقّ طريقه بعد ذلك إلى بلاد التبت لمساعدة اللاما الكبير، ثم عاد إلى لندن ليحقق في وفاة ابن أحد اللوردات بطريقة غامضة. وقد أثارت عودة شيرلوك هولمز في مجلة «ستراند» في بريطانيا ومجلة «كولْيِرْز» في أمريكا حماسة بالغة في نفوس عشّاقه المخلصين وحققت للمجلتين مبيعات غير مسبوقة. واستمر نشر سلسلة

«عودة شيرلوك هولمز» (التي بلغ عدد حلقاتها ثلاث عشرة حلقة) حتى كانون الأول (ديسمبر) ١٩٠٤.

وكان دويل قد نشر قبل هذه السلسلة روايةَ شيرلوك هولمز الطويلة الثالثة «كلب باسكرفيل»، وقد استمر نشر حلقاتها من آب (أغسطس) ١٩٠١ إلى نيسان (أبريل) ١٩٠٢، وهي أشهر روايات شيرلوك هولمز على الإطلاق.

وبعدها صدرت سلسلة «ذكريات شيرلوك هولمز: الظهور الأخير» التي تضم سبع قصص نُشرت على حلقات متباعدة بين أيلول (سبتمبر) ١٩٠٨ وكانون الأول (ديسمبر) ١٩١٣. ثم الرواية الطويلة الرابعة «وادي الرعب» (١٩١٤/٩-١٩١٥/٥) التي حازت على إعجاب النقّاد في كل الأوقات. وأخيراً سلسلة «قضايا شيرلوك هولمز» (١٩٢١/١٠-١٩٢٧/٤) التي نُشرت آخر حلقاتها بعد أربعين سنة تماماً من صدور أولى روايات شيرلوك هولمز.

ولم تقتصر مؤلفات آرثر كونان دويل على قصص وروايات شيرلوك هولمز، فقد ألّف كتباً كثيرة غيرها، منها روايات تاريخية ورومَنْسيّة ومسرحيات، بالإضافة إلى عدد كبير من الكتب غير الروائية.

والحقيقة أنه كان كاتباً غزير الإنتاج، فقد بلغ ما تركه من مؤلفات نحو مئة وستين، منها ستّون من قصص وروايات شيرلوك هولمز، وخمس روايات من بطولة شخصية خيالية أخرى ابتكرها هي شخصية عالِم اسمه البروفِسور تشالنجر

(أشهرها رواية «العالَم المفقود») ونحو أربعين رواية من الروايات المتنوعة، بالإضافة إلى عشر مسرحيات وأربعة دواوين شعرية، وأكثر من خمسين كتاباً وكتيّباً في الشؤون الاجتماعية والسياسية والعسكرية، وكتاب ذكرياته الجميل الذي سمّاه «ذكريات ومغامرات».

* * *

رسّام شيرلوك هولمز الأشهر

تعاقب على رسم شخصية شيرلوك هولمز عددٌ من الرسّامين، لكن أشهرهم وأعظمهم -بلا خلاف- كان الرسام الإنكليزي سدني باجيت الذي صاحَبَ قصص هولمز منذ ولادتها المبكرة، وهو الذي بَلْوَر صورة شيرلوك هولمز وطبَعَها في عيون القراء على مدار السنين.

والغريب أن المجلة لم تسعَ ابتداءً خلف سدني باجيت بل خلف أخيه الأكبر ولتر الذي كان قد نجح في رسم رسومات قصّتَي «جزيرة الكنز» و«روبنسون كروزو»، لكن خطأً في الاتصالات تسبب في دعوة سدني، الأخ الأصغر، لرسم صور القصص الستّ الأولى التي نشرتها مجلة «ستراند» في النصف الثاني من عام ١٨٩١، وعلى إثر النجاح الهائل الذي لقيَته هذه القصص مع رسوماتها التصق سدني باجيت بآرثر كونان دويل لتصبح رسومات هذا بنفس أهمية كتابة ذاك في

عالم شيرلوك هولمز. وقد استمر سدني باجيت برسم الصور لقصص وروايات شيرلوك هولمز حتى وفاته عام ١٩٠٨، وبلغ عدد ما رسمه خلال هذه السنوات ٣٥٧ رسماً زيّنت ٣٨ قصة.

وحين توفي سدني استعانت مجلة «ستراند» برسّامين آخرين، فشارك في رسم السلسة الجديدة «ذكريات شيرلوك هولمز: الظهور الأخير» كل من وُلْتَر باجيت، الأخ الأكبر لسدني، وآرثر تويدل وتشارلز هَليدي وأَلِكْ بول وجوزف سمبسون وهنري بروك. أما السلسلة الأخيرة (قضايا شيرلوك هولمز) فقد رسمها ثلاثة من الرسامين هم هَوارد إلْكوك وفرانك وايْلز وألفرِدْ جِلبرْت.

هذا في نسخة هولمز البريطانية التي نشرتها مجلة «ستراند». أما في أمريكا فقد استعانت مجلة «كولِيرْز» بعدد من الرسامين أشهرهم فردرِك دورْ ستيل، ومنهم جوزف فريدرتش ورِتشارد غوتشمت ووليَم هايْد.

* * *

وَادي الخَوْف

نُشرت في أمريكا في إحدى عشرة صحيفة أمريكية معاً
في الفترة ٢٠/٩-٢٢/١١/١٩١٤

وفي بريطانيا في مجلة «ستراند» من عدد أيلول
(سبتمبر) ١٩١٤ إلى عدد أيار (مايو) ١٩١٥

ملاحظة من «الأجيال»

نُشرت هذه القصة عام ١٩١٤، إلا أن
مسرحها الافتراضي يعود إلى فترة سبقت
موت البروفسور موريارتي سنة ١٨٩٣

الجزء الأول

مأساة بيرلستون

الفصل الأول

التحذير

قلت: أميل إلى التفكير...

قال شيرلوك هولمز بنفاد صبر: هذا ما عليّ أنا أن أصنعه.

أظن أنني من أكثر الناس قدرة على الاحتمال، ولكن أعترف بأنني تضايقت من مقاطعة هولمز الساخرة لحديثي، فقلت بحدّة: حقاً يا هولمز إن من الصعب احتمالك في بعض الأحيان!

كان هولمز مستغرقاً تماماً في أفكاره الخاصة فلم يردّ على اعتراضي، ونظرت إليه فرأيته يحدق إلى قصاصة الورق التي أخرجها من الظرف وأمامه إفطاره لم يُمَسّ، ثم أخذ الظرف نفسَه ورفعه نحو الضوء ليفحصه بعناية شديدة، وأخيراً قال بتأمل: إنه خط بورلوك، لا أكاد أشك أنه خط بورلوك رغم أنني لم أرَه من قبلُ إلا مرتين. ولكن لو أن بورلوك هو المرسل حقاً فلا بد أن لهذا الخطاب أهمية كبيرة.

اكتشفت أن حديثه لم يكن موجهاً إليّ بل إلى نفسه،

فتلاشى انزعاجي ليحلّ محله اهتمام أثارَته كلماتُه، فسألته: مَن هو بورلوك هذا؟

– إنه اسم مستعار يا واطسون، مجرد اسم يختبئ خلفه شخص مراوغ مخادع. هو نفسه أخبرني بصراحة في رسالة سابقة أن هذا ليس اسمَه الحقيقي وتحدّاني أن أنجح في تتبع

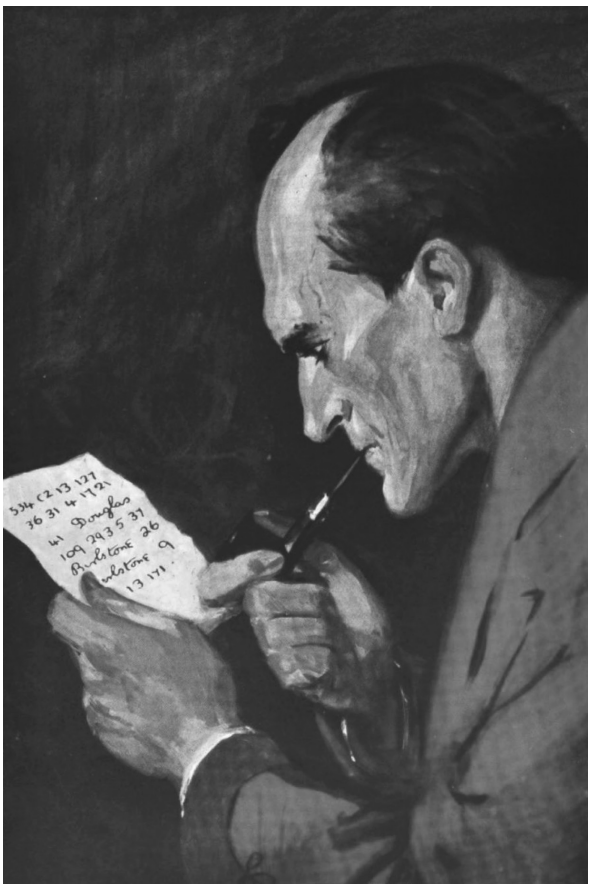

رسم فرانك وايْلز (١٩١٤) Frank Wiles (1914)

أثره بين الملايين الذين تكتظ بهم هذه المدينة الكبيرة. إن أهمية بورلوك لا تنبع من شخصه، بل لأنه على صلة برجل على درجة كبيرة من الأهمية. حاولْ أن تتصور ابن آوى بجوار الأسد، كائن قليل الأهمية يسير برفقة كائن مرعب. وهو ليس مرعباً فقط يا واطسون، بل هو تجسيد للشر في أقصى صوره، وهكذا فإنه داخلٌ في نطاق اختصاصي. لا بد أنك سمعتني أتحدث عن البروفسور موريارتي من قبل.

- إنه المجرم الخطير ذو الوسائل المنهجية الذي يحظى بشهرة بين المجرمين بقدر ما...

غمغم هولمز متواضعاً: إنك تخجلني يا واطسون.

- كنت على وشك القول: بقدر ما هو مجهول للعامة.

هتف هولمز بمرح: ضربة موفقة يا واطسون! لقد بدأتَ بإظهار حسّ غير متوقع من المزاح الماكر، وعليّ أن أتعلم حماية نفسي منه. ولكن عندما تقول إن موريارتي مجرم تكون قد شهّرت به في نظر القانون، وهنا تكمن عظمة الأمر وغرابته، فرغم أنه أعظم مدبر للمكائد في هذا العصر والعقل المتحكم بعالم الجريمة إلا أنه بعيد كل البعد عن الشبهات ومحصَّن تماماً أمام القانون، وهو يدير أموره بطريقة بارعة بحيث يستطيع استغلال تلك الكلمات التي نطقتَ بها للتوّ لجرّك إلى محكمة يخرج منها فائزاً براتب عام تعويضاً عن سمعته التي شوّهتَها. أليس هو بروفِسور الرياضيات الشهير الذي تحترمه الأوساط العلمية؟ سينظر الناس إليك على أنك

الطبيب المعتدي وهو الأستاذ المشهَّر به! هذه هي العبقرية يا واطسون، ولكن إذا لم يقضِ عليّ رجالٌ أقل شأناً منه فسيأتي الوقت الذي سننتصر عليه بالتأكيد.

قلت بإخلاص: سأكون معك لأرى ذلك، ولكنك كنت تتحدث عن شخص يدعى بورلوك.

- نعم، ذلك الرجل الذي أعرفه باسم بورلوك هو حلقة في السلسلة ولا يبعد عن مشبكها الضخم إلا قليلاً، وهو ليس حلقة قوية، بل هو -حسب اختباراتي وتحرياتي- نقطة الضعف الوحيدة في تلك السلسلة.

- ولكن أي سلسلة لا يمكن أن تزيد قوتها على قوة أضعف حلقاتها.

- تماماً يا عزيزي واطسون، ومن هنا تبرز أهمية بورلوك، فبدافع من رغبة دفينة في نفسه لفِعل الصواب (إلى جانب تشجيعه من حين لآخر بورقة من فئة الجنيهات العشرة أُرسلها له بأساليب ملتوية) حصلت منه في بعض المرات على معلومات قيّمة ساعدتني على توقّع الجريمة ومنعها بدلاً من معاقبة فاعلها بعد وقوعها، ولا شك أننا سنجد أن هذه الرسالة تحمل معلومة من النوع الذي سبق أن أشرت لو استطعتُ حل الشفرة.

بسط هولمز الورقة مرة أخرى فوق طبقه الذي لم يستخدمه بعد، فوقفت وانحنيت فوقه محدقاً إلى الكتابة المثيرة التي كانت بهذا الشكل:

٥٣٤ ع٢ ١٣ ١٢٧ ٣٦ ٣١ ٤ ١٧ ٢١ ٤١
دوغلاس ١٠٩ ٢٩٣ ٥ ٣٧ بيرلستون ٢٦ ١٧١

- ما الذي تفهمه منها يا هولمز؟

- إنها محاولة لتوصيل معلومات سرية.

- ولكن ما فائدة رسالة مشفَّرة إذا كنت لا تعرف الشفرة التي كُتبت بها؟

- في هذه الحالة لا فائدة لها على الإطلاق.

- ولماذا تقول "في هذه الحالة"؟

- لأنني أستطيع قراءة شفرات كثيرة بنفس السهولة التي أقرأ بها عمود الإعلانات الشخصية، وهي في العادة وسيلةٌ بسيطة لتسلية العقل دون إرهاقه. أما هذه الشفرة فإنها مختلفة، أظن أنها تشير إلى كلمات في صفحة من كتاب ما، ولكني لن أفهمها حتى أعرف ذلك الكتاب والصفحة المقصودة فيه.

- ولكن لماذا كتب أسماء دوغلاس وبيرلستون؟

- أحسب أن أن السبب هو أن هاتين الكلمتين لم ترِدا في الصفحة التي نتكلم عنها.

- لماذا لم يُشِر إلى الكتاب إذن؟

- لا بد أن ذكاءك الفطري -يا عزيزي واطسون- سيمنعك من وضع الرسالة المشفَّرة وحلّها في الظرف نفسه، لأنه إن لم يصل إلى وجهته المقصودة فقد يسبب لك أذى شديداً. أما إذا

أُرسلا في ظرفَين منفصلين فلن يحصل أي ضرر ما لم يضلّ الخطابان طريقَهما ويصلا -بطريقة ما- إلى الشخص الخطأ نفسه، وهذا أمر شبه مستحيل. لقد حان موعد وصول البريد، وسوف أُدهَش حقاً ما لم يصلنا خطاب آخر يفسر اللغز، أو يصلنا الكتاب نفسه الذي تشير إليه هذه الأرقام، وهو الاحتمال الأكبر.

تحقق ما توقعه هولمز خلال بضع دقائق، فقد ظهر بيلي البوّاب ومعه الخطاب المنتظَر. علّق وهو يفتح الظرف: إنه الخط نفسه. ثم أضاف بصوت مبتهج بعد أن فض الرسالة: وهي موقَّعة هذه المرة. إننا نتقدم يا واطسون...

إلا أن وجهه اكفهَرّ وهو يمر بنظره على محتويات الرسالة، ثم هتف قائلاً: يا إلهي، هذا محبط جداً! أخشى أن توقعاتي لم تتحقق يا واطسون، وآمل أن لا يصاب ذلك المدعو بورلوك بأي أذى، فقد كتب قائلاً:

عزيزي السيد هولمز،

لن أمضي قُدُماً في هذا الأمر لأنه خطير جداً، فهو يشكّ بي، أحسّ بشكوكه تجاهي. لقد فاجأني بشكل غير متوقع بعدما كتبت العنوان على هذا الظرف لأرسل لك مفتاح الشفرة في داخله، ولكني نجحت في إخفائه. لو رآه لكانت عاقبتي وخيمة. إنني أرى الشك في عينيه. أرجو أن تحرق الرسالة المشفَّرة التي لم تعد ذات قيمة.

بورلوك

جلس هولمز عابساً لبعض الوقت يقلّب الخطاب بين أصابعه ويحدق إلى النار، ثم قال أخيراً: قد لا يعني الأمر شيئاً. قد يكون إحساسه بالذنب هو ما صوّر له ذلك، فهو يعرف أنه خائن فيرى الشك في عينَي الآخر.

- أفترضُ أنك تعني بالآخر البروفسور موريارتي؟

- ومَن غيره؟ حين يتحدث واحد من تلك الجماعة عن شخص مستخدماً ضمير الغائب ستعرف على الفور مَن يعني، فليس لهم إلا زعيم واحد.

- ولكن ما الذي يستطيع فعله؟

- هذا سؤال مهم، فحين ينقلب ضدك واحدٌ من أذكى رجال أوروبا تسانده كل قوى الشر تكون الاحتمالات لانهائية لما يمكن أن يفعله. على أي حال من الواضح أن صديقنا بورلوك فقدَ صوابه من الخوف. أرجو أن تتكرم بمقارنة الخط في الرسالة بالخط على الظرف الذي كُتب -كما أخبرنا- قبل تلك الزيارة المشؤومة. الخط على الظرف واضح ثابت، أما الآخر فلا يكاد يُقرأ إلا بصعوبة.

- ولكن لماذا كتب الرسالة الثانية؟ لماذا لم ينسَ الموضوع ببساطة؟

- لأنه خاف أن أبدأ بتحرياتي فأسبب له المتاعب.

قلت: بالطبع، هذا التفسير معقول جداً.

ثم التقطت الرسالة المشفَّرة وحدقت إليها باهتمام قائلاً:

وإن كان من المثير للحنق التفكير بأن في هذه القصاصة من الورق سرّاً مهماً وأنّ فهمَ رموزها يتخطى قدرة البشر.

دفع هولمز بإفطاره الذي لم يلمسه بعيداً وأشعل غليونه البشع الذي كان رفيقَ تأملاته العميقة، ثم قال وهو يميل إلى الخلف وينظر إلى السقف: دعنا ندرس المشكلة بشكل منطقي. لقد أشار هذا الرجل إلى كتاب، وستكون هذه هي نقطة البداية بالنسبة لنا.

- لكنها نقطة غير محددة.

- فلنرَ إن كان باستطاعتنا تحديدها، فكلما ركزت تفكيري عليها بدت أقل غموضاً. ما هي الإشارات التي نملكها وتدلنا على هذا الكتاب؟

- لا نملك أي أدلة.

- رويدك، إن الأمر ليس بهذا السوء بالتأكيد، فالرسالة المشفرة تبدأ بالرقم ٥٣٤ مكتوباً بخط كبير، أليس كذلك؟ نستطيع أن نفترض أنه رقم الصفحة المحددة التي تشير إليها الشفرة، وهكذا صار الكتاب الذي نبحث عنه كتاباً ضخماً، وهذا مكسب بالتأكيد. ما هي الإشارات الأخرى التي نملكها وتشير إلى طبيعة هذا الكتاب الضخم؟ العلامة التالية هي «ع٢»، فما الذي تفهمه منها يا واطسون؟

- لعل الرسالة تشير إلى مجلد يضم عدة مجلات أو إصدارات والرمز يشير إلى العدد الثاني.

- احتمال ضعيف يا واطسون. لو حصلنا على الصفحة المطلوبة في مجلد تتسلسل أرقام صفحاته فلن يكون رقم العدد ضرورياً. وأيضاً لو بلغنا الصفحة ٥٣٤ ونحن ما نزال في العدد الثاني فقط فإن أعداد المجلد ستكون طويلة بشكل غير معقول.

صحت قائلاً: تشير إلى عمود إذن؟

- رائع يا واطسون، إنك متألق هذا الصباح. أنا متأكد أنها تشير إلى عمود، وهكذا نستطيع الآن تخيل كتاب كبير طُبع في عمودين طويلين لأن إحدى الكلمات تحمل رقم ٢٩٣. هل وصلنا إلى آخر المعلومات التي نستطيع الحصول عليها من التحليل المنطقي؟

- أخشى ذلك.

- إنك لا تقدّر نفسك حق قدرها. نحن نحتاج لومضة ذهنية واحدة إضافية يا عزيزي واطسون، فكرة ذكية مفاجئة أخرى. لو أن الكتاب كان نادراً لأرسله لي بورلوك، ولكنه بدلاً من ذلك كان ينوي -قبل أن تتعثر خطته- أن يرسل لي في هذا الظرف ما يدلّني عليه. هذا ما أشار إليه في رسالته، وهو يعني أنه قدّر أن لا أجد صعوبة في العثور عليه بنفسي. لقد كان يملك نسخة منه وتصوّرَ أنني أملك نسخة أيضاً. باختصار يا واطسون: لا بد أنه كتاب منتشر جداً.

- يبدو ما تقوله صحيحاً بالتأكيد.

- وهكذا قلّصنا نطاق بحثنا إلى كتاب كبير مطبوع في

عمودين واستخدامه شائع.

صحت كالمنتصر: الكتاب المقدّس؟!

- جيد يا واطسون، جيد، ولكن اسمح لي أن أقول إنه ليس جيداً بما يكفي، فهذا ليس من الكتب التي يتوقع المرء وجودها في متناول واحد من أعوان موريارتي، ثم إن طبعاته متعددة جداً لدرجة لا يمكن معها افتراض أن النسختين ستحملان ترقيم الصفحات نفسه. من الواضح أن الكتاب المقصود له طبعة موحدة، وهو يعرف بشكل مؤكد أن الصفحة رقم ٥٣٤ في نسخته ستتطابق تماماً مع الصفحة ٥٣٤ في نسختي.

- ولكن هذه الشروط لا تنطبق إلا على عدد قليل جداً من الكتب.

- تماماً، وفي هذا خلاصنا، فقد تقلّص مجال بحثنا ليشمل فقط الكتب الكبيرة ذات الطبعات الموحدة التي يُفترَض أن يمتلكها أي شخص.

- دليل برادشو للقطارات؟

- هذا الافتراض يواجه بعض الصعوبة يا واطسون، فالمفردات في دليل برادشو محدودة ولا تكاد تساعد على كتابة خطاب عام. سنحذف دليل برادشو من الاختيارات، والقاموس مرفوض أيضاً لنفس السبب. فماذا بقي لدينا إذن؟

- أحد كتب الإحصاءات السنوية.

- ممتاز يا واطسون، سأكون على خطأ كبير لو لم تكن إجابتك صحيحة. كتاب سنوي، دعنا ندرس مدى ملاءمة «دليل ويتاكر السنوي». إنه شائع الاستخدام وفيه ما يلزم من عدد الصفحات، كما أنه مطبوع في قوائم مزدوجة، ورغم أن مفرداته متحفظة في الصفحات الأولى إلا أنها تميل إلى الإسهاب في الصفحات الأخيرة على ما أذكر.

التقط هولمز المجلد عن الرف وقال: ها هي الصفحة ٥٣٤، العمود الثاني. جزء كبير من الكلام المطبوع يدور كما ألاحظ حول موارد الهند البريطانية والتبادل التجاري معها. دوّن الكلمات يا واطسون، الكلمة رقم ١٣ هي «ماهراتا». أخشى أن لا تكون بداية مشجعة. الكلمة رقم ١٢٧ هي «حكومة». الكلمتان تكوّنان عبارة مفهومة على الأقل وإن لم تكن لها علاقة بنا وبالبروفسور موريارتي. فلنحاول ثانية، ما الذي تفعله حكومة الماهراتا؟ يا للأسف؛ إن الكلمة التالية هي «حيوان»! لقد فشلت محاولتنا يا عزيزي واطسون، انتهى الأمر.

مع أن هولمز تحدث بمرح إلا أن ارتعاش حاجبيه الكثيفين دلّ على انزعاجه وخيبة أمله. جلست مكتئباً أحدق إلى نار المدفأة وأنا أشعر بالعجز، وفجأة قطعَت الصمتَ الطويلَ صيحةٌ أطلقها هولمز وهو يندفع نحو خزانة صغيرة، ثم عاد ممسكاً بمجلد كبير أصفر وقال: إننا ندفع ثمن دقّتنا ومبالغتنا في السرعة يا واطسون، فنحن نسبق الزمن، لذلك فإننا نتعرض للعقوبة المعتادة! لقد اشترينا إصدار السنة

الجديدة مع أنه لم يصل إلى الأسواق إلا منذ ثلاثة أيام فقط، أما بورلوك فقد أخذ رسالته -على الأرجح- من الدليل القديم الذي صدر في أول العام الماضي، ولا شك أنه كان سيخبرنا بذلك لو أنه كتب خطاباً للتفسير. والآن لنَرَ ماذا يخبئ لنا العمود الثاني في الصفحة رقم ٥٣٤.

رسم فرانك وايْلز (١٩١٤) Frank Wiles (1914)

نظر هولمز إلى الكتاب ثم قال: الكلمة رقم ١٣ هي «خطر». هذا مبشر بالخير. أما رقم ١٢٧ فهي «كبير»...

لمعت عينا هولمز بانفعال وارتعشت أصابعه النحيلة المتوترة وهو يحصي الكلمات ويقول: ها، ممتاز! سجل كلمات الرسالة يا واطسون. "خطر-كبير-قد-يقع-سريعاً-جداً-رجل-اسمه... ثم لدينا اسم دوغلاس. ثم: غني-الريف-يسكن-في... ثم اسم بيرلستون، ثم: مُلِحّ-ثقة". هاك يا واطسون، ما رأيك في التحليل المنطقي ونتيجته؟ لو كان الخُضَري القريب من بيتنا يبيع شيئاً يشبه نبات الغار لنصنع منه إكليل النصر لأرسلت بيلي لإحضاره.

نظرت إلى الرسالة الغريبة التي كتبتها ثم قلت: يا لها من طريقة غريبة غامضة للتعبير عما يقصده!

قال هولمز: على العكس، لقد أنجز عملاً رائعاً. فحين تبحث في عمود واحد عن كلمات تعبّر بها عمّا تريد فلن تعثر على كل ما تريده وسوف تضطر لترك بعض الكلمات الناقصة لذكاء متلقي الرسالة. إن معنى الكلام واضح تماماً: عمل شرير يدبَّر لشخص يدعى دوغلاس (أياً كان هذا الشخص) وهو رجل ريفي غني محترم يسكن في بيرلستون. ولأن بورلوك واثق من المعلومات التي قدمها في رسالته فقد استعمل كلمة «ثقة» لأنها أقرب كلمة استطاع العثور عليها. هذه هي النتيجة التي حصلنا عليها، وقد كانت قطعة صغيرة رائعة للتدريب على التحليل.

لاحظت أن هولمز شعر بالفرحة التي يشعر بها الفنان الحقيقي حين يجيد عمله، وكان ما يزال يضحك سعيداً بنجاحه حين فتح بيلي الباب ليرشد المفتش ماكدونالد إلى داخل الغرفة.

هذه الأحداث التي أقصّها اليوم وقعت في وقت مضى، قبل عام ١٨٩٠، عندها لم يكن آلك ماكدونالد قد نجح بعدُ في تحقيق الشهرة التي يتمتع بها الآن. ورغم قلة خبرته إلا أنه كان عضواً يُعتمَد عليه في شرطة سكتلنديارد، وقد أظهر تميّزَه في قضايا عديدة كُلِّف بها. كان قوامه الطويل الممشوق يبشر بقوة استثنائية ودلّت عيناه اللامعتان العميقتان على الذكاء الحاد، وكان دقيقاً صارماً قليل الكلام وعنده لكنة سكّان أبردين من الإسكتلنديين الأصليين.

وقد ساعده هولمز مرتين ليلقَى النجاح في مهنته مكتفياً بمكافأته الوحيدة: السعادة الذهنية التي حصل عليها بعد حل المعضلة. لهذا السبب كانت مشاعر الاحترام والود التي يكنّها ذلك المحقق الرسمي لزميله الذي لا يعمل بالشرطة الرسمية عميقة، وقد أظهر ذلك بلجوئه الصريح إليه ليستشيره عند مواجهته أي صعوبة. إن أصحاب القدرة المتوسطة لا يعترفون بمَن هم أفضل منهم، أما أصحاب المقدرة الفذة فيلاحظون العبقرية على الفور. ولدى ماكدونالد من المهارة في مهنته ما مكّنه من إدراك أن طلب المساعدة ممّن ليس في أوروبا كلها مَن يضاهيه في قدراته وخبرته ليس أمراً مُعيباً بحال.

ومع أن هولمز لا يميل إلى الرفقة إلا أنه لم ينزعج من

حضور الإسكتلندي الضخم، وقد ابتسم عند رؤيته وقال: لقد بكّرت بالحضور يا سيد ماك وأرجو أن توفّق في الحصول على ما تريد. أخشى أن حضورك ينبئ بوقوع عمل شرير ما.

أجاب المفتش بابتسامة العارف بالأمور: لو قلتَ «أتمنى» بدلاً من «أخشى» لكان تعبيرك أقربَ إلى حقيقة ما يختلج في نفسك كما أظن يا سيد هولمز. حسناً، قد يساعد كوب قهوة ساخن على قهر برد الصباح القارس قبل أن أنطلق في طريقي. لا ينبغي أن أتأخر فالساعات الأولى في أي قضية ثمينةٌ جداً، وهو أمر تعرفه أفضلَ من أي شخص آخر. ولكن، ولكن...

قطع المفتش كلامه فجأة وأخذ يحدق بذهول مطلق إلى ورقة على الطاولة. كانت الورقةَ التي كُتبت عليها الرسالة المبهمة، وتمتم قائلاً: دوغلاس، بيرلستون! ما هذا يا سيد هولمز؟! هذا عمل سَحَرة يا رجل! من أين حصلت على هذه الأسماء بالله عليك؟

- إنها شفرة اشتغلنا بحلّها أنا والدكتور واطسون. ولكن لماذا؟ ما خطب هذه الأسماء؟

نقّل المفتش نظره بيننا بذهول قائلاً: هذا هو ما حدث بالضبط، فالسيد دوغلاس القاطن في قصر بيرلستون قُتل ليلة أمس بطريقة بشعة.

* * *

نشكرك على الاهتمام بمنشوراتنا، ونأمُل أن تكون الصفحات التي قرأتها قد وفّرت لك قراءة ممتعة وعرَّفَتك بالرّواية.

يمكنك شراء نسخة ورقية من هذه الرواية (وسواها من الروايات) من موقعنا مباشرة، ونرجو عدم التردد بالاتصال بنا لو احتجت لأي مساعدة.

الأجيال
www.al-ajyal.com